الفصل الخامس

ما الذي يجعل أحد الأبوين كاملاً؟

هل وجد فن آخر تحول بإخلاص إلى علم مثل فن الأبوة؟

خلال العقود الأخيرة ظهر عدد كبير من الخبراء المختلفين في الأبوة. وكل من حاول بطريقة عفوية أن يتبع نصائحهم قد يكون وجد نفسه محبطاً، لأن الحكمة التقليدية حول الأبوة تبدو أنها تتغير بتغير الساعة. وفي بعض الأحيان قد يكون الأمر اختلاف خبير مع خبير آخر. وفي أحيان أخرى، يوافق أكثر من يجهرون من الخبراء جملة واحدة بأن الحكمة القديمة خطأ وأن الحكمة الجديدة، لمدة قصيرة على الأقل، غير مرفوضة.

فعلى سبيل المثال، الإرضاع الطبيعي هو الطريقة الوحيدة لضمان طفل صحيح ومتقدم عقلياً ـ ما لم تكن التغذية الصناعية هي الجواب. وينبغي أن يهيأ الطفل دائماً إلى النوم على ظهره ـ إلى أن يأتي الأمر بأنه يجب أن ينام على بطنه. وأكل الكبد إما أنه (أ) سام وإما أنه (ب) ضروري لتحسين الدماغ. لاتستخدم العصا فتفسد الطفل؛ وعاقب الطفل فتدخل السجن.

في كتابها «تربية أمريكا»: (الخبراء، والأبوان وقرن من النصائح حول الأطفال)، وثقت آن هولبرت كيف يناقض خبراء الأبوة بعضهم بعضاً بل وحتى يناقضون أنفسهم. فقد تكون معابثتهم مفرحة لو لم تكن فظيعة وغالباً مخيفة. غاري إيزو الذي يؤيد في سلسلة كتب (حول الطفل) إستراتيجية إدارة الطفل «للأمهات والآباء الذين يحاولون» إنجاز امتياز في القيام بالوالدية ويؤكد على أهمية تدريب الطفل باكراً على النوم وحده طوال الليل. وإلا فإن إيزو يحذر بأن حرمان النوم «سيؤثر بصورة سلبية في نمو الجهاز العصبي المركزي للطفل» وتؤدي إلى تعلم المعوقات. وإن دعاة «النوم المشترك» يحذرون من أن النوم وحيداً

ضار لنفسية الطفل وأن عليه أن يأتي إلى «سرير العائلة» وماذا عن الدافع؟ كتب ت. بيري برازيلتون في 1983 أن الطفل يصل إلى العالم «مستعداً بصورة جميلة لدور التعلم حول نفسه والعالم من حوله». فضل برازيلتون الدافع المتحمس باكراً «طفل متفاعل». ولكن قبل مئة سنة، حذر ل. إيمرت هولت بأن الطفل ليس «لعبة». واعتقد هولت ألا يكون هناك إجبار، أو ضغط ودافع غير مناسب «خلال السنتين الأوليين من حياة الطفل؛ والطفل ينمو كثيراً خلال ذلك الوقت بأن الدافع الزائد قد يسبب ضرراً كبيراً جداً». واعتقد أيضاً أن الطفل الذي يبكي ينبغي ألا يحمل إلا إذا كان متألماً. وكما شرح هولت، يجب أن يترك الطفل يبكي لمدة 15 أو 30 دقيقة في اليوم: «إنه تدريب للطفل».

يميل خبير الأبوة النمطي، كما يميل خبراء الميادين الأخرى، لأن يبدو واثقاً من نفسه بصورة كبيرة. ولايناقش الخبير كثيراً الجوانب المتنوعة لقضية مثل غرس علمه بصورة ثابتة في جانب واحد. وهذا لأن الخبير الذي يشتم من النقاش رادعاً لايحظى باهتمامٍ كبير. ويجب أن يكون الخبير شجاعاً إذا كان يأمل بأن يحول نظريته المحلية إلى حكمة تقليدية. وفرصته لفعل ذلك هو أن يربط عواطف عامة؛ لأن العاطفة عدو النقاش العقلي. وعندما تذهب العواطف، أو واحدة منها أقوى من العواطف البقية. فالغول، وأسلحة الدمار الشامل في العراق، ومرض جنون البقر، والموت في السرير: كيف نفشل في التفكير في نصيحة الخبير حول هذه المخاوف عندما، مثل ما فعل ذلك العم الذي يقص على أطفال صغار قصصاً مخيفة جداً، جعلنا نرتجف؟

وما من شخص يتأثر بإشاعات الخبراء أكثر من الوالد. والخوف في واقع الحال عنصر كبير من عمل الأبوة. وبعد كل شيء، إن الوالد هو من يعتني بحياة مخلوق آخر، مخلوق يكون في البداية أضعف من المولود الجديد لأي أجناس أخرى. وهذا يجعل الكثيرين من الآباء يصرف الكثير من طاقة الوالدية لديهم ببساطة؛ لأنهم خائفون.

المشكلة هي أنهم خائفون غالباً من الأشياء الخاطئة. ليس ذلك خطأهم بالفعل. وفصل الحقائق عن الشائعات عمل صعب دائماً، ولاسيما بالنسبة للوالد المشغول. والضجة البيضاء التي يولدها الخبراء ـ دون أن نقول شيئاً عن الضغط الذي يمارسه الوالد، طاغية جداً لدرجة أنهم يستطيعون أن يفكروا بأنفسهم بصورة مجردة. والحقائق التي يفلحون بالتقاطها يجري تلوينها بصورة عادية؛ أو تجري المبالغة فيها، وإلا تخرج من السياق لتخدم الأجندة التي لم تكن أجندتهم.

فكر في والدي ابنة عمرها ثماني سنوات واسمها لنفرض أنه «مولي»، وأفضل صديقتين لها هما آمي وإيماني، تعيشان قريباً منها. يعرف والدا مولي أن آمي تحتفظ بمسدس في بيتها، لذا منعا مولي من اللعب هناك. وبدلاً من ذلك، تمضي مولي الكثير من وقتها في بيت إيماني، حيث يوجد مسبح في الحديقة الخلفية، ويشعر أهل مولي بسعادة؛ لأنهما اتخذا هذا الخيار لحماية ابنتهما.

ولكن بحسب المعطيات، لم يكن اختيارهما ذكياً مطلقاً. ففي سنة معينة غرق طفل واحد في مسبح من كل 11000 يسكنون في المناطق السكنية في الولايات المتحدة. (وفي قطر فيه 6 ملايين مسبح، هذا يعني أن ما يقرب من 550 طفلاً تحت سن العشر سنوات يغرقون في كل سنة). هنا طفل يقتل بمسدس من كل مليون مسدس. (وفي بلد يقدر أن فيه 200 مليون مسدس، هذا يعني أن ما يقرب من 175 طفلاً تحت سن العشر سنوات يقتلون بالمسدسات). إن احتمال الموت في المسبح (1 من 11000) مقابل الموت بالمسدس (1 من مليون أوأكثر) ليس احتمالاً قريباً. فمن المحتمل أن تموت مولي أكثر من 100 مرة في حادث بالمسبح في بيت إيماني من الموت بالمسدس في بيت آمي.

لكن معظمنا مثل والدي مولي، نقدر الخطر تقديراً مرعباً. أوضح هذه النقطة بيتر ساندمان، وهو يصف نفسه «مستشاراً بتوضيح الخطر» في برنستون، نيوجرسي في أوائل سنة 2004 بعدما أثارت حالة من مرض جنون البقر في الولايات المتحدة حماساً ضد البقر. قال ساندمان لمجلة نيويورك تايمز:

«إن الحقيقة الأساسية هي أن الأخطار التي أخافت الناس، والأخطار التي تقتل الناس، هما حقيقتان مختلفتان».

وقدم ساندمان مقارنة بين مرض جنون البقر (وهو تهديد مخيف جداً، لكنه نادر جداً) وانتشار الفيروسات التي يحملها الطعام في المطبخ المنزلي العادي (وهو عام، ولكن ليس مخيفاً جداً). «يقول ساندمان»: إن الأخطار التي نستطيع السيطرة عليها هي مصدر لغضب أقل من الأخطار التي ليست تحت سيطرتنا. ففي حالة جنون البقر، أشعر أن المرض خارج عن سيطرتي. فلا أستطيع القول: إن كان في اللحم فيروسات أم لا. ولا أستطيع رؤيتها، ولا أستطيع أن أسميها. بينما الأوساخ في مطبخي هي تحت سيطرتي تماماً. فأستطيع أن أنظف الإسفنجة وأستطيع أن أنظف الأرض.

إن مبدأ «السيطرة» عند ساندمان يمكن أن يفسر لماذا يخشى الناس الطيران أكثر من خوفهم من قيادة السيارة. فهم يفكرون كما يلي: بما أنني أسيطر على السيارة فأنا الذي أحتفظ بسلامتي، بينما لا أستطيع السيطرة على الطائرة، فإنها تحت رحمة عدد كبير من العوامل الخارجية.

إذن أيهما يجب أن نخشاه فعلاً، الطيران أم قيادة السيارة؟

قد يساعد في البداية طرح سؤال أكثر جوهرية: ما الذي نخافه بالضبط؟ ربما الموت. لكن الخوف من الموت يحتاج إلى تضييق. طبعاً نعرف جميعنا أننا مقدر علينا الموت، وقد نقلق بشأنه بصورة عرضية. ولكن إذا علمت أن احتمال موتك في العام القادم هو 10٪، فإنك ستقلق أكثر، وربما تختار أن تعيش بطريقة مختلفة. وإن علمت أن احتمال موتك في الدقيقة الآتية هو 10٪، فإنك من المحتمل أن تفزع. إذن إن الاحتمال الأكبر للموت هو ما يدفعنا إلى الخوف، وهذا يعني أن الطريقة المعقولة أكثر هي حساب الخوف من الموت يجعلنا نفكر فيه على أساس الساعة.

فإن كنت ستقوم برحلة، ولديك خيار قيادة السيارة أو ركوب الطائرة، فإنك قد ترغب في أن تفكر بمعدل الموت في الساعة في القيادة مقابل الطيران. صحيح أن العديد من الناس يموتون في الولايات المتحدة كل سنة في حوادث السيارات (ما يقرب من 40 ألف) أكثر من حوادث الطائرات (أقل من 1 بالألف). ولكن من الصحيح أيضاً أن معظم الناس يمضون وقتاً أطول في سياراتهم مما يقضونه في الطائرات. (ويموت ناس أكثر في حوادث القوارب في السنة مما يموتون في حوادث الطائرات؛ وكما رأينا في أحواض السباحة مقابل المسدسات، فالماء هو أخطر كثيراً مما يعتقد معظم الناس). فمعدل الموت بالساعة من الغرق مقابل الطيران متساويان. فالنقطتان المتقابلتان هما محتملتان بصورة متساوية (أو بالحقيقة مختلفتان) لأنهما تؤديان إلى الموت.

لكن الخوف يزداد في الزمن الحاضر. ولهذا السبب يعتمد الخبراء عليه؛ ففي عالم نافد الصبر بصورة متزايدة مع عمليات ذات آجال طويلة، فإن الخوف لعبة قوية قصيرة الأجل. تخيل أنك موظف حكومي مسؤول عن تأمين الأموال لمحاربة قاتل أو قاتلين: هجمات إرهابية ومرض القلب. أي سبب تعتقد أن أعضاء الكونغرس سيفتحون الخزائن له؟ الاحتمال هو أن أي شخص يقتل في هجوم إرهابي أقل احتمالاً من أن يقوم الشخص نفسه بإغلاق شرايينه بالطعام الدسم ويموت بمرض القلب، لكن الهجوم الإرهابي يحدث الآن، والموت بمرض القلب بعيد نوعاً ما، كارثة هادئة. والأعمال الإرهابية ليست تحت سيطرتنا؛ أما البطاطا المقلية فهي ليست كذلك. فهذا مهم تماماً كعامل السيطرة التي يسميها بيتر ساندمان «عامل الخوف». إن الخوف من هجوم إرهابي (أو مرض جنون البقر) يعتبر مخيفاً جداً؛ والموت بمرض القلب هو، لبعض الأسباب ليس كذلك.

يعمل الخبير ساندمان على كلا الطرفين من المشكلة. فقد يساعد في يوم ما جماعة لحماية البيئة في كشف الأخطار الصحية العامة. وقد يكون زبونه في اليوم المقبل مديراً تنفيذياً لشركة تقدم الطعام السريع ويحاول التعامل مع

المصاب بفيروسات تسكن الأمعاء. فقد خفض ساندمان القضية بخبرته إلى معادلة رتيبة: المخاطرة: خطر + فظاعة تثير الغضب. فبالنسبة لمدير الشركة ذات اللحم الفاسد في الهمبرغر، عمل ساندمان على «تخفيض الفظاعة المثيرة للغضب»؛ وبالنسبة لجماعة البيئة كان عمله «زيادة تلك الفظاعة المثيرة للغضب».

لاحظ أن ساندمان يعالج الفظاعة المثيرة للغضب، لكنه لايعالج الخطر نفسه. فهو يسلم بأن الفظاعة المثيرة للغضب والأخطار ليست بالقوة ذاتها في معادلته للمخاطرة. «فعندما يكون الخطر عالياً والفظاعة متدنية، يقلل الناس من عملهم، بينما حين يكون الخطر منخفضاً والفظاعة عالية فإن الناس يبالغون في عملهم».

لذا لماذا يكون حوض السباحة أقل إخافة من السلاح؟ إن فكرة إطلاق النار على الطفل في صدره بواسطة مسدس جاره عمل مروع ودرامي ومرعب، وبكلمة واحدة فظاعة تثير الغضب. ولاتثير أحواض السباحة الحفيظة، وهذا لأن جزءاً من البيت عامل مألوف. فتماماً كما يمضي معظم الناس وقتاً أطول في سيارتهم مما يمضونه في الطائرات، فكذلك لدى معظمنا خبرة لا بأس بها في السباحة في حوض السباحة أكثر من خبرتنا بإطلاق النار. ويستغرق الطفل ثلاثين ثانية فقط حتى يغرق وغالباً ما يحدث هذا من دون أي ضجة. ويمكن أن يغرق الطفل في ماء ضحل لا يزيد عمقه عن بضع بوصات «إنشات». والخطوات المطلوبة لمنع الغرق هي مباشرة تماماً: رقابة إنسان بالغ وسياج حول حوض السباحة وباب خلفي مقفل؛ حتى لايتسلل طفل حديث العهد بالمشي دون أن يلاحظه أحد.

لو اتبع كل والد هذه الاحتياطات، لتم إنقاذ مايقرب من 400 طفل في كل سنة. وهذا يزيد عن عدد أولئك الأطفال الذين يتم إنقاذهم بواسطة اختراعين تم الترويج لهما على نطاق واسع في الذاكرة الحديثة: السرير الأسلم ومقعد الطفل للسيارة. تظهر الدراسة أن مقاعد الأطفال للسيارة في أحسن أحوالها تساعد. وبالتأكيد من الأسلم وضع الطفل على الكرسي الخلفي، بدلاً من أن يجلس في حضن أحدهم في المقعد الأمامي، حيث يندفع كالصاروخ عند وقوع أي حادث.

لكن السلامة التي يتم الحصول عليها هنا هي منع الأطفال من الانطلاق بسرعة، وليس من ربطهم إلى مقعد السيارة الذي يكلف 200 دولار. ومع ذلك فإن كثيراً من الآباء يضخمون فائدة مقعد السيارة الذي يسافرون إلى محطة الشرطة المحلية أو قسم الإطفاء؛ كي يركبوه بصورة صحيحة. وعملهم هذا هو إشارة حب بالتأكيد، لكنها أيضاً إشارة إلى ما قد تسمى «وسوسة الوالدين». (فالآباء الموسوسون يعرفون من هم وهم فخورون بذلك عموماً؛ وكذلك يعرف الآباء غير الموسوسين من هم الموسوسون ويحاولون أن يسخروا منهم).

ترتبط معظم الاختراعات في ميدان سلامة الأطفال بمنتج جديد (صدمة الصدمات) يجب تسويقه. يباع ما يقرب من خمسة ملايين كرسي للسيارة في كل سنة. وغالباً ما تكون هذه المنتجات استجابة لخوف ما ينمو ويتزايد (وربما يكون بيتر ساندمان وضعه) بحيث يتفوق على الخطر. قارن حياة 400 طفل يحميها بضعة تحذيرات واحتياط في المسبح بعدد الحيوات التي يتم إنقاذها في حملات صاخبة: الرزمة المانعة للأطفال (تقدر بخمسين طفلاً في السنة) والبيجاما التي تمنع الاشتعال (10 أطفال) إبعاد الأطفال عن أكياس الهواء في السيارة (أقل من خمسة أطفال في السنة قتلوا بالبالون منذ اختراعه)، وسلامة حبال الجر في ألبسة الأطفال (طفلان).

تقول: على رسلك. ما هي أهمية الآباء إن كان الخبراء والمسوقون يستغلونهم؟ ألا ينبغي أن نصفق لأي جهد بغض النظر عن صغره أو تغيره الذي قد يجعل طفلاً واحدا سليماً؟ أليس لدى الآباء الآن ما يكفي ليقلقوا عليه؟ وبعد كل ذلك، الآباء مسؤولون عن واحد من أعظم المخاوف أهمية كما نعلم: تشكيل شخصية الطفل ذاتها، أليس كذلك؟

إن أكثر تغير جذري في الحكمة التقليدية مؤخراً يخص الوالدية، قد أثير بسؤال واحد بسيط: كم يهتم الوالدان فعلاً؟

من الواضح أن الوالدية الرديئة مهمة جداً. كما توضح العلاقة بين الإجهاض والجريمة أن الأطفال غير المرغوب بهم ـ وهم موضوع للإهمال وسوء الاستغلال ـ ذات نتائج أسوأ من الأطفال الذين كان آباؤهم ينتظرونهم برغبة وشوق. ولكن كم يستطيع هؤلاء الآباء المتشوقون أن يحققوا من أجل أطفالهم فعلاً؟

يمثل هذا السؤال تصعيداً في البحث يصل إلى عقود من الزمن. فخيط طويل من الدراسات، بما فيها البحث في التوائم الذين تم تفريقهم عند الولادة، توصلت إلى أن الجينات وحدها مسؤولة عما يقرب من 50٪ من شخصية الطفل وقدراته.

فإذا كانت الطبيعة مسؤولة عن نصف مصير الطفل، فمن هو المسؤول عن النصف الآخر؟ لابد أنه التنشئة ـ فأشرطة الطفل موزارت، ومواعظ الكنيسة ورحلات المتحف ودروس الفرنسية والمساومة والعناق والشجار والمعاقبة كلها تؤلف عمل الوالدية. ولكن كيف نفسر عندئذ الدراسة المشهورة الأخرى، مشروع التبني في كولورادو، الذي جاء بعد حياة 245 طفلاً وضعوا في التبني ووجد في النهاية أنه لاتوجد علاقة بين ميول شخصية الطفل وأولئك الرفاق الذين تم تبنيهم؟ أو في الدراسات الأخرى التي تظهر أن شخصية الطفل لم تتأثر كثيراً، سواء أرسل إلى مركز الرعاية النهارية أم لا، وسواء أكان له والد واحد أمْ والدان، وسواء عملت أمه أم لم تعمل، وسواء أكان لديه أمّان أمْ أبوان أمْ أب وأم؟

تمت معالجة هذه المخالفات في التنشئة الطبيعية في كتاب صدر سنة 1998 لمؤلفة غير معروفة اسمها جوديث ريش هاريس. وكان (افتراض التنشئة) نتيجة هجوم على الوالدية الموسوسة، كتاب مثير، احتاج إلى عنوانين فرعيين: لماذا يخرج الأطفال بالطريقة التي يخرجون بها؟ وتأثير الآباء أقل من تأثير الرفاق. وتناقش هاريس، على الرغم من أنها تناقش بطريقة لطيفة، أن الوالدين يخطئان التفكير بأنهم يسهمون بشكل كبير في شخصية طفلهم. وتكتب: إن هذا الاعتقاد

obeikandi.com

«خرافة ثقافية». وتناقش هاريس بأن تأثير الوالدين من الأعلى إلى الأسفل تسيطر عليه آثار ضغط الرفاق، والقوة الفظة التي يستخدمها الأصدقاء وزملاء الدراسة.

أثار عدم احتمال شظية قنبلة هاريس ـ فقد كانت جدة، لا أقل، وبدون شهادة دكتوراة أو تلتحق بجامعة ما ـ الدهشة والغم. كتب أحد المراجعين «قد يغفر الناس عامة قولهم». ها نحن نعود من جديد. فيقال لنا في سنة: إن الرباط هو الأساس، وفي السنة الثانية إنه ترتيب الولادة. انتظر، إن ما يهم حقاً هو الدافع. فالسنوات الخمس الأولى من الحياة هي أكثر أهمية. لا، السنوات الثلاث؛ كلا إن كل شيء في السنة الأولى مهم. انس ذلك: إن كل شيء هو الجينات!

لكن نظرية هاريس أيدها سجل الأوزان الثقيلة حسب الأصول، فبينهم كان ستيفن نبكر، وهو عالم النفس المدرك والمؤلف الأكثر مبيعاً الذي قال في كتابه (السجل الفارغ) وقد دعا آراء هاريس «مجفلات العقل» (بالمعنى الطيب). كتب نبكر «إن المرضى في الأشكال التقليدية للعلاج النفسي، بينما هم يعيشون صراعات طفولتهم لمدة خمسين دقيقة ويتعلمون بأن يلقوا اللوم لعدم سعادتهم على الطريقة التي عاملهم بها آباؤهم». وتمسح أشياء كثيرة من مذكرات طفولة الشخص للوصول إلى جذور المآسي عند الكبار وانتصاراتهم. ويجعل خبراء الوالدية النساء يشعرن كعمالقة القصص الشعبية إذا ما تسللن من البيت ليعملن أو ليتخلصن من قراءة (طابت ليلتك أيها القمر). كل هذه الاعتقادات العميقة سيعاد التفكير فيها.

أو هل سيكون ذلك؟ ينبغي أن يكون الآباء مهمين، تقول لنفسك. إضافة إلى ذلك، حتى الزملاء يمارسون تأثيراً كبيراً في الطفل، أليس الآباء هم أساساً من اختاروا أصدقاء الطفل؟ أليس لذلك يتعذب الآباء في جوارهم، في مدرستهم وحلقة الأصدقاء ذاتها؟

ولا يزال السؤال إلى أي حد يكون الآباء مهمين سؤالاً جيداً. وهو معقد تعقيداً فظيعاً. ففي تقرير تأثير الوالد، أي بعد من أبعاد الطفل تقيس شخصيته؟ درجاته المدرسية؟ سلوكه الأخلاقي؟ قدراته الإبداعية؟ راتبه عندما يكبر؟ وأي أهمية يجب أن توضع لكل من هذه المدخلات العديدة التي تؤثر في نتيجة الطفل: جيناته، بيئته العائلية، مستوى الاقتصاد الاجتماعي، المدرسة، التميز، الحظ، المرض، وهكذا؟

ومن أجل المناقشة، لندرس قصة طفلين: أحدهما أبيض والآخر أسود.

نشأ الطفل الأبيض في ضاحية من ضواحي شيكاغو بين، والدين يقرأان بصورة واسعة ويندمجان في الإصلاح المدرسي. فأبوه، وهو صاحب عمل صناعي حسن، غالباً ما يأخذ الطفل في نزهات في الطبيعة سيراً على الأقدام. وأمه ربة بيت تعود أخيراً إلى الكلية وتحصل على درجة إجازة في التربية. والطفل السعيد ينجز إنجازاً جيداً في المدرسة. ويعتقد أساتذته أنه سيكون عبقرياً في الرياضيات من دون شك. ويشجعه والداه وهما فخوران به عندما يرتفع درجة. وله أخ أصغر منه وهو رائع وذكي. وغالباً ما تستضيف العائلة صالوناً أدبياً في بيتهم.

والطفل الأسود ولد في دايتونابيتش في فلوريدا وأمه تخلت عنه عندما كان في الثانية من عمره، ولدى والده عمل جيد في المبيعات لكنه سكير. وغالباً ما يضرب الطفل الصغير بالنهاية المعدنية لخرطوم الحديقة. وذات مساء عندما كان الطفل في الحادية عشرة من عمره كان يزين سطح طاولة لشجرة عيد الميلاد ـ وهي أول شجرة ميلاد في حياته ـ بدأ والده يضرب صديقته في المطبخ. وضربها ضرباً مبرحاً حتى طارت بعض أسنانها من فمها وسقطت على قاعدة شجرة الميلاد للطفل، لكن الطفل كان يعرف أفضل مما يتكلم. وفي المدرسة لم يبذل أي جهد. ولم يمضِ وقت طويل، حتى راح يسرق المخدرات ويهاجم سكان الضواحي من الخلف، وهو يحمل مسدساً. وكان يبذل جهداً ليكون نائماً عندما يصل أبوه إلى البيت بعد معاقرة الخمر، ويخرج من البيت قبل أن

يستيقظ أبوه. وفي آخر الأمر أدخل الأب إلى السجن بسبب اعتداء جنسي. وعندما كان عمره اثنتي عشرة سنة كان الطفل يناضل بصورة أساسية من أجل نفسه.

ليس عليك أن تعتقد بالوالدية الموسوسة لتعتقد أن الطفل الثاني لم يتحمل فرصة وأن الطفل الأول قد حققها. ما هي الشواذ التي ستجعل، بعد إضافة معوقات التمييز العرقي، من الطفل الثاني يعيش حياة منتجة؟ وماهي الشواذ التي ستجعل الطفل الأول الرشيق والمؤهل للنجاح يفشل بطريقة ما؟ وإلى أي قدر من قدر كل من الطفلين سيغرس ذلك إلى والديه؟

ويستطيع المرء أن ينظر دائماً بما يجعل الوالد كاملاً، ولسببين لن يقوم مؤلفا هذا الكتاب بذلك. والسبب الأول هو أنه لا يعترف أي منا بأنه خبير الوالدية (مع أننا فيما بيننا لدينا ستة أولاد تحت سن الخامسة). والسبب الثاني أننا أقل اقتناعاً بنظرية الوالدية مما تقوله المعطيات.

ليس من السهل قياس بعض أوجه نتائج الطفل بالمعطيات الشخصية مثلاً أو الإبداع، لكن الأداء المدرسي سهل قياسه. وحيث إن معظم الآباء يوافقون بأن التعليم يكون في جوهر تشكيل الطفل؛ وقد يكون من المعقول البدء بفحص مجموعة أخبار حول المعطيات المدرسية.

وتتعلق هذه المعطيات في اختيار المدرسة، قضية يشعر معظم الناس بقوة في اتجاه واحد أو اتجاه آخر. فالمعتقدون حقاً باختيار المدرسة يناقشون بأنه بستة دولارات يشترون حق إرسال أطفالهم إلى أفضل مدرسة ممكنة. ويعلق النقاد بأنهم باختيار المدرسة سيتركون خلفهم أسوأ الطلاب في أسوأ المدارس، ولا يزال كل الآباء يعتقدون بأن ابنهم سيزدهر لو أنه استطاع الذهاب إلى المدرسة الصحيحة، وهو الطفل ذو المزيج المناسب من الجامعة والمناهج الإضافية والود والأمان.

وجاء اختيار المدرسة باكراً إلى نظام المدرسة العامة في شيكاغو. وذلك لأن المدارس العامة في شيكاغو، مثل المدارس المدنية المحلية، فيها عدد من طلاب

الأقلية غير متناسب. وعلى الرغم من قرار المحكمة العليا في الولايات المتحدة في سنة 1954 في براون ومكتب التربية في توبيكا، الذي قرر أن على المدارس أن تلغي التمييز العرقي، فإن كثيراً من الطلاب السود في المدارس العامة بشيكاغو استمروا في المجيء إلى المدارس، إذ كانوا جميعاً من السود تقريباً. ولذا في سنة 1980 تجمعت وزارة العدل في الولايات المتحدة ومكتب التربية في شيكاغو؛ ليحاولوا التوحيد بصورة أفضل لمدارس المدينة. وأصدر أمر بأن الداخلين في السنة الأولى يستطيعون تقديم الطلب إلى أي مدرسة ثانوية في المنطقة أخيراً.

فإلى جانب عمرها الطويل، هناك بضعة أسباب تجعل برنامج اختيار المدرسة من المدارس العامة في شيكاغو جيداً، وهي أسباب جيدة للدراسة، وتعرض مجموعة معطيات ضخمة ـ كانت شيكاغو هي ثالث أكبر مدينة في البلاد، بعد نيويورك ولوس أنجلوس ـ إضافة إلى عدد كبير من الخيارات (أكثر من ستين مدرسة ثانوية) والمرونة. ومعدلات الاستيعاب العالية جداً، فنصف طلاب المدارس الثانوية في شيكاغو يختارون مدارس منطقتهم. ولكن معظم النواحي التصادفية في برنامج المدارس الثانوية في شيكاغو ـ من أجل الدراسة، على الأقل ـ هي كيف تجري لعبة اختيار المدرسة.

وكما هو متوقع، فإن فتح أبواب المدارس عريضة أمام كل طالب في السنة الأولى في شيكاغو يهدد بخلق مستشفى للمجانين، حيث الصخب والضجيج. والمدارس التي درجات الاختبارات فيها عالية وكذلك معدلات التخرج سوف تصاب بهياج المشتركين، وتجعل من المستحيل إرضاء طلب كل طالب.

وضماناً لمصلحة العدالة، لجأت مدارس شيكاغو العامة إلى القرعة. وبالنسبة للباحث هذه نعمة كبيرة. وقد لا يتمكن عالم السلوك من تصميم تجربة أفضل في مخبره، وتماماً كما يفعل العالم في تحديد فأر تحديداً عشوائياً من مجموعة للمعالجة وفأر آخر ليكون الشاهد من المجموعة، فقد فعلت مدارس شيكاغو الشيء نفسه. تخيل طالبين متماثلين من الناحية الإحصائية يريد كل منهما أن

يذهب إلى مدرسة جديدة وأفضل. وبسبب طريقة قفزات الكرة في الحوض، يذهب أحدهما إلى مدرسة جديدة، بينما يبقى الآخر في مدرسته. والآن تخيل مضاعفة أعداد الطلاب بالآلاف، والنتيجة تجربة طبيعية على نطاق كبير. وبالكاد هذا ما كان الهدف في عقول موظفي مدارس شيكاغو الذين تصوروا فكرة القرعة. ولكن عندما ينظر إليها بهذه الطريقة، فإن القرعة تقدم وسيلة رائعة من وسائل قياس كيفية اختيار المدرسة ـ أو بالواقع أفضل مدرسة ـ المهم حقاً.

إذن، ماذا تكشف المعطيات؟

لن يكون الجواب مقنعاً للوالدين المهووسين: في هذه الحالة، لايهم اختيار المدرسة مطلقاً. صحيح أن طلاب شيكاغو الذين دخلوا قرعة أن اختيار المدرسة كان من المحتمل أن يتخرجوا أكثر من الطلاب الذين لم يدخلوا ـ وهذا يشير إلى أن اختيار المدرسة يوجد الفرق ـ لكن هذا ضرب من الوهم. والبرهان هو هذه المقارنة: فالطلاب الذين فازوا بالقرعة وذهبوا إلى مدرسة «أفضل» لم يكن أداؤهم أفضل من الطلاب الذين فشلوا بالقرعة ولازموا مدارسهم. وهذا يعني، أن الطالب الذي اختار من بين عدد من المدارس المحلية ذو احتمال أكبر لأن يتخرج، سواء فاز بفرصة الذهاب إلى مدرسة جديدة أم لم يفز. وما يبدو أنه فائدة تم اكتسابها بالذهاب إلى المدرسة الجديدة لا يتعلق بالمدرسة الجديدة مطلقاً. وما يعنيه هذا أن الطلاب ـ والأولياء ـ الذين اختاروا يميلون لأن يكونوا أذكى وذوي دوافع علمية أكثر هذا كبداية. ولكن من الناحية الإحصائية لم يفوزوا بمزايا علمية عن طريق تغيير المدارس.

وهل صحيح أن الطلاب الذين بقوا في مدارسهم المحلية كانوا يعانون؟ لا: فقد تابعوا الاختبار في المستويات نفسها تقريباً، كما كانوا قبل حصول نزيف الأدمغة المفترض.

ولكن كان يوجد مجموعة من الطلاب في شيكاغو يرون تغيراً دراميا: أولئك الذين دخلوا مدرسة فنية أو مهنية علمية. كان أداء هؤلاء الطلاب أفضل كثيراً

مما فعلوه في أوضاعهم العلمية القديمة وتخرجوا بمعدلات أعلى كثيراً تنبأ به أداؤهم الماضي. وهكذا فقد ساعد برنامج مدارس شيكاغو العامة لاختيار المدارس في إعداد عينة صغيرة من الطلاب الذين يناضلون من أجل أعمال مهمة، وذلك عن طريق إعطائهم مهارات عملية. ولكن يبدو أن ذلك لم يجعل أي طالب أكثر ذكاء.

هل يمكن أن يكون اختيار المدارس لا يهم بالفعل؟ ما من ولي لطالب يحترم نفسه سواء أكان مهووساً أم لا مستعد لتصديق ذلك، ولكن مهلاً: قد يكون ذلك لأن مدارس شيكاغو العامة تقيس طلاب الثانوية؛ ويمكن عندها أن يكون الطالب قد أعد فعلاً. لاحظ ريتشارد في ميلز مؤخراً، وهو المسؤول التعليمي في ولاية نيويورك «أنه توجد أعداد كبيرة من الطلاب الذين يصلون إلى المدرسة الثانوية وهم غير مستعدين للقيام بأعمال المدرسة الثانوية، وتوجد أعداد كبيرة من الطلاب الذين يصلون إلى المدارس الثانوية وهم يقرؤون ويكتبون ويحلون الرياضيات من المستوى الابتدائي. ينبغي علينا أن نصحح المشكلة في المراحل الأولية».

وبالفعل، لقد أيدت الدراسات الأكاديمية قلق ميلز. فعند فحص الفجوة بدخول البالغين البيض والسود ـ من الثابت أن السود يحققون درجات أقل كثيراً ـ ووجد العلماء أن الفجوة ستقتلع بالنهاية إذا أخذت درجات الصف الثامن المتدنية للسود بعين الاعتبار. بعبارة أخرى، إن فجوة الدخول بين البيض والسود هي من نتاج الفجوة التعليمية بين البيض والسود التي يمكن ملاحظتها قبل عدد من السنين. كتب أحد مؤلفي إحدى الدراسات: «إن خفض الفجوة ما بين درجات اختبار البيض والسود سيؤدي إلى مزيد من عدم المساواة العرقية أكثر من أي إستراتيجية تطالب بدعم سياسي واسع».

إذن، فمن أين تأتي فجوة اختبارات البيض والسود؟ لقد قدمت نظريات كثيرة على مدى سنين: مثل الفقر والتركيب الجيني وظاهرة «التأخر في الصيف» (يعتقد أن الطلاب السود يخسرون من الأسس أكثر مما يفقده الطلاب البيض

عندما تكون هناك عطلة مدرسية) والتحيز العرقي في الاختبارات أو في مفاهيم الأساتذة وردة فعل السود على «البيض الناشطين».

في صحيفة تدعى «اقتصاد الناشطين البيض»، كتب الشاب الأسود الاقتصادي من هارفارد، وولاند جي فراير الابن: إن بعض الطلاب السود «لديهم امتيازات هائلة ليستثمروها في السلوك خاصة (أي، التعليم والباليه... إلخ) وذلك بسبب حقيقة أنهم سيعتبرون شخصاً يحاول التصرف مثل شخص أبيض (خيانة للسود) مثل هذه التسمية في بعض المناطق يمكن أن تستوجب عقوبة تتراوح من اعتبار الشخص منبوذاً اجتماعياً إلى تعرضه للضرب أو القتل». ويضع فراير ذكرياته عن شاب اسمه كريم عبد الجبار أو المعروف عندئذ باسم ليو ألسندرو الذي دخل الصف الرابع في مدرسة جديدة واكتشف أنه أفضل قارئ حتى من طلاب الصف السابع: «عندما وجده الأولاد خارجاً، أصبحت هدفاً.. وكانت المرة الأولى في حياتي التي أبعد فيها عن البيت. وأول خبرتي في وضع كله مع السود. وجدت نفسي أتلقى عقوبة على كل شيء تعلمته، وكان صحيحاً لقد حصلت على الدرجة (آ) في كل المواد وكرهوني لذلك. وتكلمت بشكل صحيح فسموني بالتافه. وكان علي أن أتعلم لغة جديدة لأتعامل مع هذه التهديدات كان سلوكي جيداً وكنت ولداً صغيراً ومهذباً ودفعت ثمن ذلك باختبائي».

وفراير أيضاً أحد مؤلفي «فهم فجوة درجات الاختبار بين البيض والسود في السنتين الأوليين في المدرسة». تستفيد هذه الورقة من استعادة معطيات حكومية تساعد بصورة موثوقة في معالجة الفجوة مابين السود والبيض. وربما من المهم أكثر أن المعطيات تقوم بعمل جيد، إذ تجيب عن السؤال الذي يريد الآباء ـ بيض وسود وآخرون ـ أن يسألوه: ما هي العوامل التي تؤثر، ولا تؤثر في أداء الطفل في المدرسة؟

في أواخر التسعينيات وضعت وزارة التربية في الولايات المتحدة مشروعاً عملاقاً أسمته دراسة طولية للطفولة المبكرة (ECLS). سعت هذه الدراسة إلى

قياس التقدم المدرسي لأكثر من عشرين ألف طالب من الحضانة إلى الصف الخامس. وتم اختيار الطلاب من جميع أنحاء البلاد؛ ليمثلوا مقطعاً صحيحاً لأطفال المدارس الأمريكية.

قاست الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) الأداء المدرسي للطلاب وجمعت معلومات المسح النمطي حول كل طفل: عرقه جنسه، وتركيبه العائلي، ووضعه الاجتماعي الاقتصادي، ومستوى تعليم والديه... إلخ. ولكن الدراسة ذهبت إلى أبعد من هذه الأساسيات، وضمت أيضاً مقابلات مع أولياء الطلاب (وأساتذتهم والإداريين)، ووضعت قائمة طويلة من الأسئلة أكثر حميمية من تلك الأسئلة التي توجد في المقابلات الحكومية النمطية؛ إن كان الأولياء يضربون أطفالهم، وكم مرة؛ وإن كانوا يأخذونهم إلى المكتبات أو المتاحف؛ وماهي المدة التي يشاهدون فيها التلفاز.

والنتيجة مجموعة غنية من المعطيات لاتصدق، وإن طرحت الأسئلة الصحيحة منها، تعطيك بعض القصص المدهشة.

كيف يمكن جعل هذا النوع من المعطيات يقص قصة يعتمد عليها؟ بإخضاعها إلى اللعبة المفضلة لدى الاقتصاديين: التحليل الانحداري، ليس التحليل الانحداري شكلاً منسياً من أشكال المعالجة النفسية. إنه أداة قوية ـ إذا كانت محدودةً ـ وتستخدم الأساليب الإحصائية لتحديد الارتباطات التي لولا ذلك لكانت ارتباطات وهمية.

الترابط ليس أكثر من عبارة إحصائية تبين عندما يتحرك متغيران معاً. يميل الطقس في الخارج إلى البرودة عندما يتساقط الثلج؛ فهذان العاملان مترابطان إيجابياً. بينما تترابط الشمس والمطر بصورة سلبية. وهذا سهل مادام هناك متغيران فقط. ولكن حينما يكون هناك مئتا متغير، تكون الأمور أصعب. والتحليل الانحداري هو الأداة التي تمكن الاقتصادي ليقوم بتصنيف هذه الكومة الضخمة من المعطيات.

ويقوم بذلك عن طريق وضع تثبيت صناعي لكل متغير ما عدا متغيرين يرغب في التركيز عليهما، ومن ثم يري كيف يتغير هذان الاثنان معاً.

في عالم كامل، يستطيع الاقتصادي إجراء تجربة مضبوطة تماماً كما يفعل الفيزيائي أو البيولوجي: وذلك بأن يضع عينتين، ويستخدم إحداهما عشوائياً ويقيس النتيجة. لكن الاقتصادي نادراً ما يتوافر له هذا الرفاه من التجريب الصافي. (ولذلك كانت قرعة اختيار المدرسة في شيكاغو حادثة سعيدة). فما لدى الاقتصادي بصورة عادية هو مجموعة معطيات مع كثير من المتغيرات، وليس بينهم أي متغير يتولد عشوائياً، فبعضها مرتبط وبعضها الآخر غير مرتبط.

في حالة معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS)، قد يساعد أن نفكر بتحليل الانحدار ونحن نؤدي المهمة الآتية: تحويل كل من أولئك الأطفال البالغ عددهم عشرون ألفاً إلى نوع من لوحة الدارة ذات عدد مماثل من المفاتيح. يمثل كل مفتاح صنفاً واحداً من المعطيات حول الطفل: نتيجة بالرياضيات في الصف الأول، ونتيجة بالرياضيات في الصف الثالث، ونتيجته بالقراءة في الصف الأول، ونتيجته بالقراءة في الصف الثالث، ومستوى تعليم أمه، ودخل والده، وعدد الكتب في بيته ومستوى الرفاه النسبي في منطقته، وهكذا.

الآن يتمكن الباحث من أن يلح في بعض النظرات الثاقبة من مجموعة المعطيات المعقدة هذه. يستطيع أن يصف جميع الطلاب الذين يشتركون في خصائص كثيرة ـ جميع لوحات الدارات التي لها مفاتيح تتجه في الاتجاه نفسه ـ ومن ثم ينتقي سمة واحدة لايشتركون بها. وهكذا يستطيع عزل التأثير الحقيقي لذلك المفتاح المفرد على لوحة الدارة المنتشرة. وهذه هي الطريقة التي يؤثر بواسطتها ذلك المفتاح ـ وأخيراً جميع المفاتيح ـ تصبح مكشوفة.

لنقل: إننا نريد أن نسأل معطيات الدراسة للطفولة المبكرة (ECLS) سؤالاً أساسياً. حول الوالدية والتعليم: هل كثرة الكتب في بيتك تجعل طفلك يتقدم في المدرسة؟ لا يستطيع تحليل الانحدار أن يجيب عن هذا السؤال تماماً، لكنه

يستطيع الإجابة عن سؤال مختلف اختلافاً ذكياً: هل يتجه الطفل الذي يوجد في بيته كتب كثيرة إلى أن يؤدي أداء أفضل من الطالب الذي لا كتب لديه؟ هذا الاختلاف بين السؤال الأول والثاني هو اختلاف بين السببية (في السؤال 1) والارتباط (في السؤال 2).

يستطيع التحليل الانحداري أن يكشف عن الارتباط، لكنه لا يبرهن على السببية. وبعد كل هذا، هناك بضع طرق تستطيع فيها المتغيرات أن تترابط. تستطيع «س» أن تسبب «ع»؛ ويستطيع «ع» أن يسبب «س»؛ أو يمكن أن يسبب عامل آخر كلاً من «س» و «ع». فتحليل الانحدار وحده لايستطيع أن يقول: إن كانت الطبيعة تثلج لأن الطقس بارد، أو أن يقول: إن الطقس بارد؛ لأنها تثلج، أو إن الاثنين يُصادف أنهما يسيران معاً.

إن معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) تظهر مثلاً بأن الطفل الذي لديه كتب كثيرة في بيته يميل لأن يكون اختباره أعلى من الطفل الذي ليس لديه كتب. إذن؛ هذان العاملان مترابطان، وهذا شيء جيد لنعرفه. لكن نتائج الاختبار الأعلى ترتبط بعدد آخر من العوامل الأخرى أيضاً. فإذا قمت بقياس الأطفال الذين لديهم كتب كثيرة لمقارنتهم بالأطفال الذين ليس لديهم كتب، فقد يكون الجواب ذا معنى مهم جداً، فربما يشير عدد الكتب في بيت الطفل إلى مقدار المال الذي يكسبه والداه. وما نريد عمله بالفعل هو أن نقيس الطفلين المتشابهين من جميع الأحوال ماعدا حالة واحدة ـ وهنا هي عدد الكتب في بيته ـ ونرى إن كان ذلك العامل وحده يحدث فرقاً في أدائه المدرسي.

يجب القول: إن التحليل الانحداري هو فن أكثر مما هو علم. (وفي هذا الخصوص، فيه كمية كثيرة مشتركة مع الوالدية نفسها). لكن الممارس الماهر يستطيع استخدامه؛ ليقول كم يكون الترابط ذا معنى، وقد يقول حتى إن كان الترابط يستطيع بيان العلاقة السببية.

إذن ما الذي يقوله تحليل معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة في الأداء المدرسي للطلاب؟ عدد من الأشياء. الشيء الأول يهتم بفجوة نتائج اختبار السود والبيض.

لقد لوحظ منذ زمن طويل أن الأطفال السود، حتى قبل أن تطأ أقدامهم عتبة الصف، يكون أداؤهم دون أمثالهم من البيض. وأكثر من ذلك، إن الأطفال السود لا يقاسون، حتى عندما يضبطهم صف عريض من المتغيرات.(لضبط متغير ينبغي أساساً إلغاء تأثيره، تماماً مثل لاعب الغولف الذي يستخدم معوقاً ضد آخر، وفي حالة الدراسة الأكاديمية كما في الدراسة حول الطفولة المبكرة، قد يضبط باحث أي عدد من المساوئ التي يحملها طالب واحد عندما يقاس مقابل الطالب الوسطي. لكن هذه المجموعة الجديدة من المعطيات تخبرنا قصة مختلفة، فبعد ضبط عدد قليل من المتغيرات ـ بما في ذلك مستوى الدخل والتعليم لوالدي الطفل وعمر أمه عند ولادة الطفل الأول ـ فإن الفجوة بين الأطفال السود والبيض تلغى في النهاية في الوقت الذي يدخل فيه الأطفال إلى المدرسة.

هنا اكتشاف مشجع من ناحيتين. ويعني أن الأطفال السود الصغار استمروا في تحقيق مكاسب تناسب أمثالهم من البيض، كما تعني أنه مهما بقيت الفجوة يمكن ربطها بمجموعة من العوامل المحددة فوراً، تكشف المعطيات أن الأطفال السود الذين يكون أداؤهم ضعيفاً في المدرسة يفعلون ذلك لا لأنهم سود ولكن لأنهم يتجهون إلى المجيء من بيوت ذات مستوى دخل منخفض ومستوى تعليم منخفض. ولكن الطفل الأسود العادي والطفل الأبيض اللذين ينتميان إلى الأساس الاجتماعي والاقتصادي ذاته لهما القدرات ذاتها في الرياضيات والقراءة عند دخول مدرسة الروضة.

خبر جيد، أليس كذلك؟ ولكن لاداعي للعجلة. أولاً وقبل كل شيء لأن الطفل الأسود العادي أكثر احتمالاً لأن يأتي من بيت ذي مستوى دخل متدني ومستوى

تعليم متدني أيضاً، فإن الفجوة حقيقية: ففي المعدل لايزال الأطفال السود يحققون علامات أدنى. وأسوأ حتى لو كان دخل الوالدين وتعليمهما مضبوطين، فإن الفجوة بين البيض والسود تعود للظهور خلال سنتين من دخول الطفل إلى المدرسة. وبنهاية الصف الأول يصبح أداء الطفل الأسود أدنى من الطفل الأبيض المساوي له إحصائياً. وتبدأ الفجوة في الاتساع بشكل مستمر خلال السنتين الثانية والثالثة.

لماذا يحدث هذا؟ هذا سؤال صعب ومعقد. لكن جواباً واحداً قد يكمن في الحقيقة أن المدرسة التي يداوم فيها الطفل الأسود العادي ليست المدرسة ذاتها التي يداوم فيها الطفل الأبيض العادي، والطفل الأسود يذهب إلى المدرسة التي هي ببساطة.. مدرسة سيئة.

وحتى بعد خمسين سنة على براون وبورد، كانت المدارس الأمريكية قد عادت إلى الفصل العنصري أخيراً. وقامت الدراسة حول الطفولة المبكرة بإجراء مسح لما يقرب من ألف مدرسة. وذلك بأخذ عينات تتألف من عشرين طفلاً من كل مدرسة. في 35٪ من تلك المدارس، لم يكن بينهم طفل أسود واحد في العينات. فالطفل الأبيض العادي في دراسة (ECLS) يحضر في مدرسة فيها 6٪ فقط من السود؛ وفي الوقت نفسه يحضر الطفل الأسود العادي مدرسة فيها نسبة 60٪ من السود.

ولكن إلى أي مدى كانت مدارس السود سيئة؟ وليس بالطرق التي تقاس بها المدارس بصورة تقليدية، وهذا مهم. وأما من حيث حجم الصف، وتعليم الأساتذة، ونسبة الحاسب إلى الطالب، فإن المدارس التي يذهب إليها السود والبيض هي متشابهة. ولكن مدرسة الطالب الأسود الطبيعي ذات معدل عال جداً للمؤشرات ذات الإشكال، مثلما هي مشكلات العصابة. ولا تسكع للطلاب أمام المدرسة، ونقص تمويل (PTA هيئة الآباء و المعلمين) لاتقدم هذه المدارس بيئة محققة للتعليم بكل بساطة.

obeikandi.com

إن الطلاب السود ليسوا وحدهم من يعانون من المدارس السيئة. والأطفال البيض في هذه المدارس يؤدون بشكل سيء، وبالواقع، هناك لاتوجد فجوة بين نتائج البيض والسود بصورة رئيسة في مدرسة سيئة في السنوات الأولى عندما تضبط بيئات الطلاب. لكن جميع الطلاب في المدرسة السيئة، سواء البيض أم السود؛ يفقدون أساساً للطلاب في المدارس الجيدة. وربما أخطأ المربون والباحثون لتوقفهم عند فجوة درجات البيض والسود؛ فربما تكون الفجوة ما بين المدرسة السيئة والمدرسة الجيدة هي القضية البارزة. فكر بهذه الحقيقة: إن معطيات الدراسة حول مدارس الطفولة تكشف أن الطلاب السود في مدارس جيدة لا يفقدون أساساً لصالح زملائهم البيض، وأن أداء الطلاب السود في مدارس جيدة يفوق أداء الطلاب البيض في المدارس السيئة.

لذا، فبحسب هذه المعطيات، يبدو أن مدرسة الطفل لها التأثير نفسه في التقدم العلمي. هل يمكن قول الشيء ذاته بالنسبة للوالدية؟ هل كل هذه الأشرطة لبيبي موزارت تعوض؟ وماذا عن قرارات الماراثون طابت ليلتك أيها القمر؟ هل الانتقال إلى الضواحي يستحق ذلك؟ هل يقوم الآباء PTA بأفضل من الأطفال الذين لم يسمع آباؤهم عن جلسات الآباء والمعلمين؟

يقدم المدى الواسع لمعطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) عدداً من الترابطات المقنعة بين الظروف الشخصية للطفل وأدائه المدرسي. فعلى سبيل المثال عند ضبط العوامل الأخرى جميعاً، يتضح أن الطلاب من المناطق الريفية يكون أداؤهم أدنى من الأداء الوسطي. بينما يكون أداء الطلاب من الضواحي، ممثلاً في منتصف الخط البياني، بينما يتجه طلاب المدن إلى تسجيل علامات أعلى من المعدل. (قد يكون السبب أن المدن تجتذب إليها القوى العاملة الأكثر تعليماً، ولذلك يكون الآباء مع أطفالهم الأذكى).

وبشكل عام، يكون اختبار البنات بعلامات أعلى من الذكور، واختبار الطلاب الآسيويين بعلامات أعلى من الطلاب البيض، ومع أن الطلاب السود، كما بينا

من قبل، تكون اختباراتهم مماثلة لاختبارات الأطفال البيض الذين ينتمون إلى بيئة مماثلة وفي مدارس متماثلة.

وبعد أن عرفنا ما عرفناه الآن عن التحليل الانحداري، والحكمة التقليدية وفن الوالدية، فكر الآن في القائمة الآتية والمؤلفة من ستة عشر عاملاً. وبحسب معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة (ECLS) فإن ثمانية عوامل منها تظهر علاقة ترابط قوية ـ إيجابية أم سلبية ـ مع علامات الاختبار. والعوامل الثمانية الأخرى يبدو أنها لاتؤثر. حاول أن تخمن أياً منها يؤثر وأياً منها لايؤثر.

ـ يتمتع والدا الطفل بتعليم جيد.

ـ عائلة الطفل سوية.

ـ يتمتع والدا الطفل بمركز اجتماعي واقتصادي عالٍ.

ـ انتقل والدا الطفل إلى منطقة أفضل مؤخراً.

ـ كان عمر الأم ثلاثين عاماً أو أكثر عندما وضعت طفلها الأول.

ـ لم تعمل أم الطفل في مدة ما بين الولادة وذهابه إلى مدرسة الحضانة.

ـ كان وزن الطفل عند الولادة منخفضاً.

ـ داوم الطفل على المدرسة المبكرة (قبل سن المدرسة).

ـ يتكلم والدا الطفل الإنكليزية بالبيت.

ـ والدا الطفل يأخذانه إلى المتحف بصورة منتظمة.

ـ الطفل متبنى.

ـ يصفع الطفل بصورة منتظمة.

ـ والدا الطفل منضمان إلى هيئة الآباء والمعلمين.

ـ غالباً ما يشاهد الطفل التلفاز.

ـ في بيت الطفل كتب كثيرة.

ـ يقرأ والدا الطفل له كل يوم تقريباً.

وهنا الآن العوامل الثمانية التي تظهر علاقة ترابط قوية مع نتائج الاختبار:

ـ يتمتع والدا الطفل بتعليم جيد.

ـ يتمتع والدا الطفل بمركز اجتماعي واقتصادي عال.

ـ كان عمر الأم ثلاثين عاماً أو أكثر عندما وضعت طفلها الأول.

ـ كان وزن الطفل عند الولادة منخفضاً.

ـ يتكلم والدا الطفل الإنكليزية بالبيت.

ـ الطفل متبنى.

ـ والدا الطفل منضمان إلى هيئة الآباء والمعلمين.

ـ في بيت الطفل كتب كثيرة.

العوامل الثمانية التي لا تؤثر:

ـ عائلة الطفل سوية.

ـ انتقل والدا الطفل إلى منطقة أفضل مؤخراً.

ـ لم تعمل أم الطفل في مدة ما بين الولادة وذهابه إلى مدرسة الحضانة.

ـ داوم الطفل على المدرسة المبكرة.

ـ والدا الطفل يأخذانه إلى المتحف بصورة منتظمة.

ـ يصفع الطفل بصورة منتظمة.

ـ غالباً ما يشاهد الطفل التلفاز.

ـ يقرأ والدا الطفل له كل يوم تقريباً.

obeikandi.com

والآن لنأخذ كل عاملين معاً:

العامل المؤثر: يتمتع والدا الطفل بتعليم عالٍ.

العامل غير المؤثر: عائلة الطفل سوية.

إن الطفل الذي يتمتع والده بتعليم عالٍ يكون أداؤه المدرسي جيداً بصورة عامة: وهذا لايدهش أحداً. فالعائلة ذات الدراسة الكثيرة تتجه إلى تقييم الدراسة. وربما كان الأكثر أهمية إذا كان الوالدان من ذوي معدل الذكاء العالي، فيميلان لتحقيق مزيد من التعليم، ومعدل الذكاء أمر وراثي بقوة. ولكن حيث تكون عائلة الطفل عائلة سوية لايبدو أن هذا يؤثر. وكما تظهر الدراسات المذكورة سابقاً، فإن تركيب العائلة له تأثير بسيط في شخصية الطفل، ولكنه لايؤثر في القدرات التعليمية أيضاً.

وهذا لا يعني أن العائلة ينبغي أن تعول على الانفصال شاءت أم أبت. ولكن يجب أن تقدم التشجيع إلى ما يقرب من عشرين مليون من الأطفال الأمريكيين الذين نشؤوا في كنف والد واحد.

العامل المؤثر: يتمتع والدا الطفل بوضع اجتماعي واقتصادي جيد.

العامل غير المؤثر: انتقل والدا الطفل إلى منطقة أفضل مؤخراً.

يرتبط الوضع الاجتماعي والاقتصادي ارتباطاً قوياً مع تحقيق درجات أعلى بالامتحان، ويبدو هذا الأمر معقولاً. فالوضع الاجتماعي والاقتصادي مؤشر قوي على النجاح بصورة عامة ـ ويشير إلى معدل ذكاء أعلى وإلى تعليم أكثر ـ والوالدان الناجحان أكثر احتمالاً لأن يكون لديهما أطفال ناجحون. ولكن الانتقال إلى منطقة أفضل لايحسن فرص الطفل في المدرسة. قد يكون الانتقال بحد ذاته قوة قطع، وهذا احتمال أكبر؛ وذلك لأن البيت الأجمل لايحسن نتائج الرياضيات أو القراءة أكثر مما يحسن الحذاء الرياضي الجيد القفز العالي ليصبح أعلى.

العامل المؤثر: كان عمر الأم ثلاثين سنة أو أكثر عندما وضعت طفلها الأول.

العامل غير المؤثر: لم تعمل الأم في مدة ما بين وضع الطفل وذهابه إلى مدرسة الحضانة.

يحتمل أن ترى الأم، التي لم تنجب طفلها الأول حتى بلغت الثلاثين سنة على الأقل، طفلها يحقق تقدماً في المدرسة، فتميل الأم لأن ترغب في الحصول على تعليم متقدم أو أن تطور قوتها في مهنتها. ويحتمل أيضاً أنها تريد طفلاً أكثر مما تريده الأم المراهقة لطفلها. ولا يعني هذا أن الأم الأكبر عندما أصبحت أماً لأول مرة هي بالضرورة أم أفضل، لكنها وضعت نفسها ـ وأطفالها ـ في وضع أكثر خطراً. (وتجدر ملاحظة أن هذه الفائدة لاتوجد لدى الأم المراهقة التي تنتظر حتى تبلغ الثلاثين لتضع ولدها الثاني. تبين معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة ECLS أن الطفل الثاني لن يؤدي بشكل أفضل من طفلها الأول). وفي الوقت ذاته، نجد أن الأم التي تبقى في البيت وتترك عملها حتى يذهب طفلها إلى مدرسة الحضانة لايقدم ذلك أي فائدة. وقد يجد الآباء الموسوسون عدم وجود الترابط هذا أمراً مزعجاً، فما هو الهدف من كل تلك الصفوف التي فيها الأم وأنا؟ ولكن هذا ما أظهرته الدراسة.

العامل المؤثر: وزن الطفل منخفض عند الولادة.

العامل غير المؤثر: الطفل كان في المدرسة المبكرة.

يميل الطفل ذو الوزن المنخفض لأن يكون أداؤه سيئاً في المدرسة.

وقد تكون تلك الولادة قبل النضج مؤذية لصحته العامة. وقد يكون ذلك الوزن المنخفض مؤشراً على والدية سيئة؛ لأن الأم التي تدخن أو تشرب أو تقوم بغير ذلك تسيء معاملة جنينها في رحمها، ليس من المحتمل أن تقلب الأشياء لمجرد أنها وضعت وليدها. وانخفاض وزن الوليد بدوره أكثر احتمالاً لأن يكون الطفل مسكيناً ـ ولذلك فهو أكثر احتمالاً لأن يدخل المدرسة المبكرة، وهو برنامج اتحادي حكومي (قبل المدرسة)، ولكن بحسب معطيات الدراسة حول الطفولة

المبكرة، إن المدرسة المبكرة لا تفعل شيئاً لنتائج اختبارات الطفل في المستقبل، وعلى الرغم من التقدير الكبير والعميق للمدرسة المبكرة، (أحد مؤلفي هذا الكتاب كان طالباً رائداً فيها)، يجب أن نقر بأنها أثبتت مراراً أنها غير مجدية. وهذا سبب محتمل: فبدلاً من تمضية اليوم مع أمه المشغولة وذات التعليم المتدني، يمضي الطفل يومه في المدرسة المبكرة مع أم أخرى ذات تعليم متدنٍ ومشغولة جداً. (وغرفة مليئة بأطفال مماثلين من ذوي الحاجات). وكما يحدث، فإن أقل من 30٪ من معلمي المدرسة المبكرة لديهم درجة جامعية, وأجر هذا العمل بائس جداً ـ ما يقرب من 21000 دولار لمعلم المدرسة المبكرة مقابل 40000 دولار لمعلم دور الحضانة قبل المدرسة العامة ـ وهذا من غير المحتمل أن يجذب معلمين أفضل في أي وقت سريعاً.

العامل المؤثر: يتحدث والدا الطفل الإنكليزية في البيت.

العامل غير المؤثر: يأخذ الوالدان طفلهما إلى المتحف بانتظام.

يكون أداء الطفل الذي يتحدث والداه الإنكليزية أفضل من أداء الأطفال الذين لايتحدث آباؤهم الإنكليزية. ومرة أخرى، إن هذا غير مدهش أبداً. إن هذا الترابط مدعوم من أداء الطلاب الإسبان في الدراسة حول الطفولة المبكرة. وبصفتهم مجموعة، فإن اختبارات الطلاب الإسبان اختبارات رديئة؛ ويحتمل ألا يكون لديهم آباء يتكلمون الإنكليزية. (لكنهم يميلون إلى اللحاق بزملائهم في الصفوف المتأخرة) إذن ماذا بشأن الحالة المضادة: ماذا لو كانت الأم والأب غير محترفين بالإنكليزية، لكنهم يمضون عطلات نهاية الأسبوع يهتمون بآفاق القفل الثقافية، وذلك بأخذه إلى المتاحف؟ آسف، قد يكون حشو الثقافة اعتقاداً تقليدياً للآباء الموسوسين، لكن الدراسة حول الطفولة المبكرة لاتظهر أي علاقة ترابط ما بين زيارة المتاحف وعلامات الاختبارات.

العامل المؤثر: الطفل متبنى.

العامل غير المؤثر: غالباً ما يصفع الطفل.

توجد علاقة ترابط قوية ـ علاقة سلبية ـ بين التبني ودرجات اختبارات المدرسة. لماذا؟ أظهرت الدراسات أن القدرات العلمية للطفل تتأثر كثيراً بمعدل الذكاء للوالدين الطبيعيين أكثر من تأثرها بمعدل ذكاء الآباء الذين يتبنون الطفل، وتميل الأمهات اللواتي يسلمن أطفالهن للتبني لأن يكون معدل ذكائهن منخفضاً جداً وأكثر الناس الذين يقومون بالتبني. ويوجد تفسير آخر للتحصيل المنخفض لدى الأطفال بالتبني، وهذا على الرغم من أنه قد يبدو لا معنى له، إلا أن الانحرافات في النظرية الاقتصادية الأساسية ذات الاهتمام الشخصي تظهر أن المرأة التي تعرف أنها ستعطي طفلها للتبني قد لاتتخذ الرعاية الأبوية ذاتها كامرأة تحتفظ بوليدها. (فكر بمخاطر زيادة التفكير المكروه، كيف تعامل السيارة التي تملكها مقابل السيارة التي تستأجرها لتمضية عطلة نهاية الأسبوع). ولكن إن كان الطفل المتبنى يميل لتحصيل علامات اختبار منخفضة، فإن الطفل الذي يصفع لايميل إلى ذلك، قد يبدو هذان الأمران مدهشين ـ ليس لأن الصفع نفسه عامل مقرر وضروري ولكن لأن الصفع، بصورة عامة يعتبر ممارسة غير تنويرية. ولذلك يمكن أن نفترض أن الوالدين اللذين يصفعان هما غير متنورين بطرق أخرى. ربما لايكون الأمر هكذا في كل الحالات. أو ربما هناك قصة مختلفة للصفع ينبغي قصها. تذكر، إن مسح الدراسة المتعلقة بالمدارس المبكرة ضمت مقابلات مباشرة مع آباء الأطفال. لذا كان على الوالد أن يجلس وركبتاه تقابلان ركبتي الباحث الحكومي وأن يعترف بصفعه لطفله. وهذا يشير إلى أن الأب الذي يفعل ذلك إما أنه غير متنور أو ـ وهذا مثير للاهتمام أكثر ـ مخلص فطرياً. وقد تكون الأمانة أكثر أهمية بالنسبة للوالدية الجيدة من أن الصفع هو والدية سيئة.

ـ العامل المؤثر: الآباء منضمون لمجالس المعلمين والآباء.

ـ العامل غير المؤثر: غالباً ما يشاهد الطفل التلفاز.

إن الطفل الذي ينضم أهله إلى مجالس المعلمين والآباء يميل لأن يؤدي أداءً جيداً في المدرسة، وهذا ربما يشير إلى أن الوالدين ذوي العلاقة الجيدة بالتربية ينضمون إلى هذه المجالس، وليس لأن انضمامهم هذا يجعل أطفالهم أذكياء بطريقة ما. لا تظهر الدراسة حول مدارس الطفولة المبكرة أي علاقة بين علامات اختباراته والوقت الذي يشاهد فيه التلفاز، رغم ما تقوله الحكمة التقليدية بأن مشاهدة التلفاز لا تحول مخ الطفل ظاهرياً إلى غربال.

(في فنلندا التي يوضع نظامها التعليمي في مقدمة أنظمة العالم المتقدمة، لا يبدأ معظم الأطفال المدرسة حتى سن السابعة ولكنهم غالباً ما يتعلمون القراءة وحدهم وذلك بمشاهدة التلفاز الأمريكي والترجمة إلى الفنلندية) ولكن، ولا يحولهم استخدام الكمبيوتر في البيت إلى آينشتاين: تظهر معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة أنه لا توجد علاقة ترابط بين استخدام الكمبيوتر وعلامات اختبارات المدرسة.

والآن إلى آخر عاملين:

ـ العامل المؤثر: توجد كتب كثيرة في بيت الطفل.

ـ العامل غير المؤثر: يقرأ الأبوان له كل يوم تقريباً.

كما لوحظ من قبل، تبين أن الطفل الذي في بيته كتب كثيرة تكون اختبارات دراسته جيدة. ولكن القراءة للطفل بانتظام لا تؤثر في علامات اختباراته.

قد يبدو هذا الأمر تقديماً لأحجية. تقفز بنا إلى الوراء إلى سؤالنا الأصلي:

فقط إلى أي مدى وبأي طرق يكون الوالدان مهمين فعلاً؟

لنبدأ بالعلاقة الإيجابية: الكتب في البيت تساوي نتائج اختبارات عالية. إن معظم الناس ينظرون إلى هذا الترابط ويستنتجون علاقة سببية ونتيجة واضحة. لنفكر: طفل صغير اسمه إيسايا في بيته كتب كثيرة؛ ويؤدي هذا الطفل اختباراً بالقراءة أداءً جميلاً ؛ ولابد أن أمه أو أباه يقرآن له بصورة منتظمة. لكن صديقة

Obeikandl.com

الطفل إيميلي، التي في بيتها كتب كثيرة، ولكنها عملياً لم تلمسها. فهي تفضل أن تلبس لعبتها برانز أو تشاهد أفلام الكرتون. وكانت اختباراتها جيدة مثل اختبارات إيسايا. لكن صديقهما ريكي ليس في بيته أي كتاب. لكنه يذهب إلى المكتبة كل يوم مع أمه؛ إن ريكي بارع في القراءة. لكن اختباراته كانت أسوأ من اختبارات إيميلي و إيسايا.

ماذا تستنتج من هذا؟ إذا كانت قراءة الكتب لا تأثير لها في علامات اختبارات الطفولة المبكرة، فهل يمكن أن يجعل مجرد وجود الكتب في البيت الأطفال أكثر ذكاء؟ هل تقوم الكتب بعمل انتقال سحري في مخ الطفل؟ وإذا كان هذا صحيحاً، يشعر المرء بإغراء لأن يقدم حمولة سيارة من الكتب إلى كل بيت فيه طفل دون سن المدرسة.

وهذا بالضبط حاول فعله محافظ إيلينويز. ففي أول عام 2004 أعلن الحاكم رود بلاغويفيتش خطة لإرسال كتاب واحد شهرياً إلى كل طفل في إيلينويز من يوم ولادته حتى يدخل المدرسة الحضانة. تكلف هذه الخطة 26 مليون دولار سنوياً، لكن بلاغويفيتش يناقش بأن هذا تدخل حيوي في الولاية، حيث 40٪ من طلاب الصف الثالث يقرؤون بمستوى منخفض. «عندما تملك كتباً وهي لك»، يقال: «وتأتي لك كجزء من حياتك، فإن كل ذلك سيسهم في فهم أن الكتب يجب أن تكون جزءاً من حياتك».

فكل الأولاد الذين ولدوا في إيلينويز ـ جملة ما أخذوه ستون كتاباً فهل يعني هذا أنه عندما يحين دخولهم إلى المدرسة. هل سيؤدون بصورة أفضل في اختبارات القراءة؟

من المحتمل أن يكون الجواب: كلا. (ومع أننا لا نعلم بصورة أكيدة، ففي النهاية رفض المشرع في إيلينويز خطة الكتب) وبعد كل شيء، لا تقول معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة: إن الكتب في البيت تسبب درجات اختبارات أعلى؟ بل إنها تقول: إن الاثنين مترابطان فقط.

كيف يمكن تفسير علاقة الترابط هذه؟ إليكم نظرية محتملة:

في البداية إن الآباء الذين يشترون كتباً كثيرة للأطفال هم من الأذكياء والمتعلمين جيداً. (وينقلون ذكاءهم وعملهم الأخلاقي إلى أولادهم). أو ربما يهتمون كثيراً بالتعليم وبأطفالهم عموماً. (وهذا يعني أنهم يخلقون بيئة تشجع التعليم وتكافئه) مثل هؤلاء الآباء قد يعتقدون بحماس يشبه اعتقاد حاكم إيلينويز بأن كل كتاب يمتلكه الطفل سيكون بمثابة السحر الذي يؤدي إلى ذكاء غير مصطنع. ولكن يحتمل أنهم مخطئون. فالكتاب سبب صغير يسبب الذكاء بل أصغر من كونه مؤشراً.

إذن ماذا يقول كل ذلك عن أهمية الوالدين بصورة عامة؟ فكر مرة أخرى بالعوامل الثمانية التي تترابط مع عوامل الدراسة حول الطفولة المبكرة، وعلامات اختبارات المدرسة:

ـ والدا الطفل متعلمان تعليماً جيداً.

ـ لوالدي الطفل وضع اجتماعي واقتصادي جيد.

ـ كانت الوالدة في الثلاثين من عمرها أو أكبر عندما وضعت وليدها الأول.

ـ كان وزن الطفل عند الولادة منخفضاً.

ـ يتحدث الوالدان الإنكليزية في البيت.

ـ الطفل متبنى.

ـ والدا الطفل مشاركان في مجلس المعلمين والآباء.

ـ في بيت الطفل كتب كثيرة.

والعوامل غير المؤثرة هي:

ـ عائلة الطفل سوية.

ـ انتقل والدا الطفل مؤخراً إلى منطقة أفضل.

ـ لم تعمل أم الطفل في مدة ما بعد الولادة حتى ذهابه إلى مدرسة الحضانة.

ـ داوم الطفل على المدرسة المبكرة.

ـ والدا الطفل يأخذانه إلى المتاحف بصورة منتظمة.

ـ يعاقب الطفل بالصفع بصورة منتظمة.

ـ يقرأ والدا الطفل له كل يوم تقريباً.

ولنبالغ بالتعميم قليلاً، تصف القائمة الأولى الأشياء التي يتصف بها الوالدان؛ وتصف القائمة الثانية الأشياء التي يقوم بها الوالدان. فالوالدان المتعلمان جداً الناجحون وصحيحو الأبدان يميلون لأن يكون لديهم الأطفال الذين يقدمون امتحانات جيدة في المدرسة؛ ولكن لايبدو أنه أمر مهم فيما إذا كان الطفل قد ذهب إلى المتاحف أو صفع أو أرسل إلى المدرسة المبكرة أو إذا كانوا يقرؤون له أو ينام أمام التلفاز.

بالنسبة للوالدين ـ وخبراء الوالدية ـ الموسوسين بأساليب تخلف طفلهم، قد يكون هذا خبراً معتدلاً. فالواقع هو أن الأسلوب يبدو أنه ذو معدل مسبوق كثيراً.

ولكن هذا لا يعني أن الآباء غير مهمين. ببساطة إنهم يؤثرون كثيراً. وإليكم المشكلة:

في الوقت الذي يقوم معظم الناس بالتقاط كتاب حول الوالدية، يكون قد فات الأوان. فعظم الأشياء التي تؤثر كانت قد تقررت منذ زمن طويل ـ من أنت؟ من تزوجت؟ ما هو شكل الحياة التي تحياها؟ إن كنت ذكياً، ومجداً فسيحتمل أن يكون أطفالك ناجحين. (ولا يؤلم، في كل الاحتمالات، أن تكون أميناً وعميق التفكير "وتحترم الآخرين" ومحباً وقلقاً حول العالم).

ولكن ليس ذلك قضية كبيرة عما تفعله بصفتك أباً؛ إن الأمر يتجلى بفكرة من أنت. بهذا الخصوص إن الوالد المستبد يشبه المرشح السياسي كثيراً الذي يعتقد

أن المال يكسب الانتخابات، بينما في الحقيقة، نجد أن جميع مال العالم لا يمكن أن يجعل المرشح ينتخب إذا كان الناخبون لا يحبون أن يبدؤوا معه.

في صحيفة «الطبيعة وتغذية النتائج الاقتصادية»، يقول الاقتصادي بروس ساسيردوت معالجاً نقاش الطبيعة والتنشئة بأنه اتخذ نظرة كمية على مدى طويل للنتائج الوالدية، واستعمل ثلاث دراسات حول التبني: اثنتان أمريكيتان وواحدة بريطانية، تحتوي كل منها معطيات عميقة حول أطفال التبني، والآباء الذين تبنوهم وآبائهم الطبيعيين. فوجد ساسيردوت أن الآباء الذين يتبنون الأطفال هم في العادة أذكى وأكثر تعليماً ويحظون بأجور أعلى من الآباء الطبيعيين للأطفال. لكن مزايا الوالدين الذين يتبنون الأطفال ذات تأثير قليل في أداء الأطفال في المدرسة، وكما شوهد في معطيات الدراسة حول الطفولة المبكرة، تكون اختبارات الأطفال المتبنين أضعف نسبياً في المدرسة؛ فأي تأثير يمارسه الآباء الذين يتبنون يبدو أنه قد أعطي أكبر من وزنه وذلك بسبب قوة الجينات الوراثية. ولكن، ساسيردوت وجد، أن الآباء لم يكونوا بدون قوة إلى الأبد.

ففي الوقت الذي أصبح فيه الأطفال المتبنون راشدين، فقد يغير الاتجاه بصورة حادة من المصير الذي قد تنبأ به معدل الذكاء وحده. وبالمقارنة مع أطفال مماثلين ممن لم يقدموا إلى التبني، فإن الأطفال المتبنين كانوا أكثر احتمالا لأن يذهبوا إلى الكلية، ولأن يحصلوا على عمل بأجر جيد، ولأن ينتظروا حتى يتخلصوا من مراهقتهم قبل أن يتزوجوا. كان تأثير الآباء الذين تبنوهم، وهكذا استنتج ساسيردوت، وهو أوجد الفرق.

يعتقد ليفيت أنه يوجد شيء بورقة جديدة حول أسماء السود. ويريد أن يعرف إن كان أي شخص يحمل اسماً أسود قد عانى من عقوبات اقتصادية. وكان جوابه ـ مخالفاً لبحث حديث آخر ـ كلا. ولكن لديه الآن سؤال أكبر: هل الثقافة العرقية هي سبب عدم المساواة العرقية أم هي نتيجة لها؟ بالنسبة للاقتصادي، وحتى بالنسبة إلى ليفيت، لاتزال هذه المنطقة جديدة ويسميها «الثقافة الكمية». ويراها، كمهمة شائكة وفوضوية، وربما كانت مستحيلة وتغيظ جداً.

مجلة النيويورك تايمز، 3 آب 2003

obeikandi.com